تداولية مبدأ التأدّب في إنجازية الفعل الكلامي

أ/د. عبد الحليم بن عيسى
جامعة وهران1، أحمد بن بلّة

تقديم:

شكّل "الفعل الكلامي" الموضوع الأساسي لدى التداوليين، فبيّنوا طبيعته وشروطه أقسامه والقواعد التي تضبطه لتحقيق إنجازيته، وقد نبدأ في هذه المناسبة بالطرح الذي قدّمه رائد نظرية الأفعال الكلامية "أوستين Austin" حيث انطلق في محاضراته من التمييز الملفوظات "الوصفية Constative" والملفوظات "الإنجازية Performative"، مبينا أنّ هذه الأخيرة لم تنل حظّها الكبير من الدراسة، فناقش طبيعتها وخصوصياتها إلى أن اهتدى إلى فكرة "الفعل الكلامي"، فبيّن ماهيته، ثم فصّل القول في شروطه وأقسامه الثلاثة (فعل القول، الفعل الإنجازي، الفعل التأثيري)، ووصولا إلى ضبط أصناف الفعل الإنجازي. وقد طوّر أفكاره واستدرك بعض هفواته دارسون آخرون؛ منهم تلميذه "سيرل Searle"، و"فوندرليش Wunderlich" و"فان دايك Van dijk" و"أوركيوني Orecchioni" و"ريكاناتي Récanati" و"جورج يول George Yule" غيرهم.

وقد تبيّن لرواد هذه النظرية أنّ جوهر الفعل الكلامي مؤسس على ما يقتضيه السياق الذي يجري فيه التخاطب؛ بدْءاً من المتكلّم، ثم الحال الذي يجري فيه الكلام ومعطياته ووصولا إلى المتلقي. وقد عُدّت مقتضيات التأدّب والتهذيب في القول من أهم القواعد التي من شأنها أن تسهم في إنتاج الفعل القولي وتحقيق إنجازيته، وإذا كان "أوستين Austin" لم يستجمعها ضمن مبدأ عام فإنّه قد أشار إليها وهو يورد "شروط مطابقة مقتضى الحال في الإنشاء" في محاضراته، ولكنّها نالت حظّها الأكثر من الدرس والمعالجة مع غيره من الدارسين مثل "غرايس Grice"، و"روبين لايكوف Robin Lakoff"، و"براون Brown وليفنسون Lenvinsen"، و"ليتش Leech" و"أوريكيوني Orecchione"، وغيرهم.

ومداخلتنا تناقش طبيعة "مبدأ التأدب" وقواعده وأثره في ضمان النجاح للفعل الإنجازي، وسنقارن ما قدّمه الدارسون ضمن نظرية الأفعال الكلامية مع قدّمه علماؤنا في التراث العربي، والغرض هو التأكيد في النهاية أنّ قواعد مبدأ التأدّب تتجسّد في فعل القول ضمن مؤشرات قولية مختلفة، ولكن ليست نموذجية عامة كما يعتقد الكثير من الدارسين في هذه النظرية؛ بل تختلف من لغة إلى أخرى، وبحسب طبيعة البيئة اللغوية والاجتماعية وحتى العقدية بين مختلف الأمم.

1-الفعل الكلامي و"مبدأ التأدّب":

يعدّ "التأدّب" من بين أهم المصطلحات التي تتردّد في الدراسات التداولية، و"أدّبه في اللغة: راضه على محاسن الأخلاق ولقّنه فنون الأدب، وتأدّب: تعلّم الأدب. ويقال تأدّب بأدب القرآن أو أدب الرسول: احتذاه". و"الأدب الذي يتأدّب به الأديب من الناس؛ سُميّ أدبا لأنّه يَأْدِبُ النّاس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح... وأدّبه فتأدّب: علّمه الأدب". والتأديب: التهذيب والمجازاة"[1].

وفي الحديث النبوي الشريف: (أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي).

وقد ورد في التراث العربي أقوال كثيرة تراهن على التأدّب، وتمجّد الأدب وتدعو إلى تحصيله والاتصاف به، قال عليّ بن أبي طالب "رضي الله عنه" في قوله عزّ وجلّ (يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهليكُمْ نَاراً)[2]، قال: أدِّبوهم وعلّموهم[3]. قال شبيبُ بن شيبة: "اطلبوا الأدب فإنّه عون على المروءة، وزيادةٌ في العقل، وصاحبٌ في العزلة، وصلةٌ في المجلس"[4]. وقال ابن القرِّيَّة: "تأدّبوا فإن كنتم ملوكا سُدتم، وإن كنتم أوساطاً رُفعتم، وإن كنتم فقراءَ استَغنيتُم"[5]. وفي المثل "خيرُ الأَدَبِ مَا حَصُلَ لَكَ ثمرُهُ، وظَهَرَ عليك أَثَرُهُ"[6].

فمعاني "التأدّب" مرتبطة بالتعلّم والأخذ بكلّ ما من شأنه أن يهدي الفرد إلى كل ما هو محمود، ويبعده عن كل ما هو مذموم، وعليه إذا وُصف به الخطاب (الخطاب المؤدّب) فإنّها قد تجعله يحمل كل هذه الدلالات. فـ"التأدّب في الخطاب" في أساسه كفاءة تمكّن صاحبها من القدرة على التفاعل الفعّال مع مختلف المواقف بإنتاج الخطاب الذي من شأنه أن يضمن هذا التفاعل، وبالتالي

---

[1] ينظر لسان العرب لابن منظور، مادة "أدب"، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي مادة "أدب"، والمعجم الوسيط، مادة "أدب".

[2] التحريم (6).

[3] بهجة المَجالس وأنسُ المُجالس وشحذ الذهن والهَاجس، ابن عبد البر النمري القرطبي (ت463)، تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت دار المكتب العلمية، ط2 (د.ت)، 112/1.

[4] أدب المجالسة وحمد اللسان، ابن عبد البر (ت463هـ) تحقيق ودراسة سمير حلبي، طنطا دار الصحابة للتراث، ط1/1989، ص105.

[5] نفسه، ص105.

[6] الأمثال والحكم، علي بن محمد الماوردي (ت450هـ)، تحقيق ودراسة د.فؤاد عبد المنعم أحمد، الرياض دار الوطن للنشر، ط1/1999، ص85.

يحقّق الغرض المنوط به. وقد يكون بالكلام أو عدمه، وعدّ الكثير من البلغاء ذلك "بلاغةً"؛ ففي البيان والتبيين عن إسحاق بن حسان بن قُوهى أنّه قال: «لم يفسِّر البلاغة تفسير ابنِ المقفع أحدٌ قطُّ، سُئِل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة؛ فمنها ما يكون في السّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا...»[1].

ويتحقّق "التأدّب في الكلام" كفعل ونشاط بتحصيل العلم بمختلف أشكاله، والتجربة والخبرة والحكمة، قال الأصمعي: «قيل لابن المقفع من أدّبك فقال: نفسي إذا رأيت من غيري حُسنا أتيته، وإن رأيت قبيحا أبيته»[2].

وبهذا يشمل "التأدّب" كل المعارف العلمية والثقافية والاجتماعية والحضارية التي تهذّب مخاطبات الأفراد وتعلو بهم، تترجمها سلوكاتهم ومعاملاتهم، ولكن يبقى الأهم ما يتحقّق في الخطاب؛ أي ما يتم بـ"اللغة"، قال منصور الفقيه[3]:

لَيْسَ الأَدِيبُ أَخَا الرِّوَا يـــــةِ لِلنَّوَادِرِ وَالغَرِيبْ
وَلِشِعْرِ شَيْخِ المُحْدَثِيـــــنَ أَبـي نُواسٍ أَو حَبِيبْ
بَلْ ذُو التَّفَضُّلِ وَالمَرُو ءَةِ وَالعَفَافِ هُوَ الأَدِيبْ

و"اللغة" بهذا المنظور؛ ليست مجرّد أشكالٍ أو رموز تقوم على وصف الوقائع أو نقل الأخبار؛ بل هي منوطة بتغيير الواقع وفق تقتضيه القوى الإنجازية المقصودة؛ فقد يقول بائع السيارة للمشتري "بعتك سيارتي" فتصبح بعد ذلك ملكاً له، وقد يقول المدير للعامل الذي أكثر من الغيابات "أنت مفصول من عملك"؛ فيصبح بعد ذلك غير مقبول عن عمله. ثم إنّ اللغة ضمن الأفعال الكلامية تفصح عن الذات، وتكشف عن طبيعة الشخصية المتكلمة ثقافةً أو تواضعاً أو تعفّفاً أو تكبّراً أو اضطراباً أو تفاهةً أو غير ذلك؛ فقد يطلب العامل الجادّ من مديره الحصول على إجازة فيجيب تواضعا: "أنت تأمر". وقد يسأل المعلّم التلميذ قائلا: "هل أجبت عن التمارين المطلوبة منك في الحصة الماضية؟" فيجيب: "لم ولن أنجزها!"، فيقول المعلّم: "هذا كلام غير مؤدّبٍ".

ومنه نلاحظ أنّ وظيفة اللغة ضمن هذه الحالات تكمن في تحقيق الأفعال الاجتماعية المقصودة، كما أنّها قد تفصح عن طبيعة وطبع المتكلم وقيمته في

---

[1] الجاحظ، تحقق عبد السلام هارون، القاهرة مكتبة الخانجي، ط1989/7، 115/1-116.

[2] كتاب رسائل البلغاء، جمعها محمد كرد علي، طبع دار الكتب العربية، مصطفى البابي الحلبي وأخويه، سنة، 1913، ص13.

[3] الأمثال والحكم، الماوردي ص180.

هذه العلاقات، ثمّ إنّ اللغة بهذا الاعتبار هي التي تحقّق فعل "التأدّب" بمختلف أوجهه، أو "عدم التأدّب" بمختلف أصنافه، قال الشاعر يحيى بن زياد[1]:

وَقَدْ يَكشِفُ القَوْلُ عَنِ الفَتَى فَيَبْدُو وَيَسْتُرُهُ مَا سَكَتْ

ويتحقّق التأدّب في "الخطَاب" بالتمكّن من اللغة وقواعدها النحوية والصرفية، والمعرفة بالمقامات ومقتضياتها التعبيرية، وأشكال تأليف الأقوال بحسب الأحوال، بالإضافة إلى المعرفة بأقوال العرب وحكمهم وأمثالهم ومأثوراتهم وأخبارهم وتجاربهم، يقول أبو هلال العسكري: «ما رأيت حاجة الشريف إلى شيءٍ من أدب اللسان بعد سلامة اللحن كحاجته إلى الشاهد والمثل والشذْرة والكلمة السائرة»[2]. ومع هذا لا تكفي الكفاءة اللغوية الصرفة من غير التمكّن من أصناف المعارف الأخرى الثقافية والموسوعية والمنطقية والتداولية في تأمين أشكال التأدّب في الخطاب.

2-مبادئ التفاعل الكلامي:

أكّد التداوليون أنّ هناك قواعدَ تحكم التفاعل الكلامي تتجاوز القواعد اللغوية التي تبقى في حدود بنية اللغة؛ كون الفعل الكلامي ليس مجرّد نطق لألفاظٍ معيّنةٍ مرتّبةٍ على مدلولات محدَّدة؛ وإنّما هو إرادةٌ من لدن المتكلّم للتوجّه إلى المتلقي من أجل حمله على إنجاز معيّن انطلاقا مما تمليه العلاقة التخاطبية التي لا تبقى في حدود تحقيق القول؛ بل ترتهن أكثر بقواعد التبليغ انطلاقا مما يقتضيه السياق الذي يجري فيه التلفّظ.

يقول طه عبد الرحمن: «ولما كان التخاطب يقتضي اشتراك جانبين عاقلين في إلقاء الأقوال وإتيان الأفعال، لزم أن تنضبط هذه الأقوال بقواعد تحدّد وجوه فائدتها الإخبارية أو قل "فائدتها التواصلية"، نسميها بـ"قواعد التبليغ"، علماً بأنّ مصطلح "التبليغ" موضوع للدلالة على التواصل الخاص بالإنسان، كما لزم أن تنضبط هذه الأفعال بقواعد تحدّد وجوه استقامتها الأخلاقية، أو قل "التعاملية" نسمِّيها بـ"قواعد التهذيب"»[3].

وتتأسس الفكرة الأساسية لهذه القواعد في أنّ المتخاطبَيْن في أي تفاعل كلامي إنّما يتقاسمان هدفا مشتركا؛ وهو خلق الفعالية للتواصل، والتي تستدعي

---

[1] الأمثال والحكم، الماوردي، ص88.

[2] جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق أبو الفضل عبد المجيد قطامش، بيروت دار الجيل، ط2، (د.ت)، 4/1.

[3] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص237.

عدم البقاء في حدود البناء اللغوي؛ بل تقوم أيضا على النظر في حدثية الفعل الكلامي.

وقد بحث التداوليون في هذه القواعد منهم؛ "غرايس Grice" الذي صاغها ضمن مبدأ عام سمّاه "مبدأ التعاون"[1]، وصيغته "ليكن انتهاضك للتخاطب على الوجه الذي يقتضيه الغرض منه"[2]. وهو مبدأ يستوجب من المشاركين في النشاط الكلامي أن يحترموه؛ إذ يُتوقَّع أن يُسهم كلّ واحد منهم في المخاطبة بكيفية عقلانية ومتعاونة في إنتاج الكلام وتأويله، انطلاقا من أربع قواعد:

أولا-قاعدة الكم: تقتضي أن:

-تكون إفادة المخاطب على قدر حاجته.

-أن لا تتعدّى الإفادة القدر المطلوب.

وهذه القاعدة هي الفكرة الأساسية التي انبنت عليها البلاغة العربية التي دعت إلى ضرورة أن يكون الكلام بقدر الحاجة، وبالتالي تكييف الكلام بحسب المطلوب.

ثانيا-قاعدة النوع: وتستلزم من المتكلّم:

-أن يكون صادقا فيما يقوله.

-أن لا يقول ما ليس عليه دليل.

فتستوجب هذه القاعدة من المتكلّم أن لا يقول ما يعتقد أنّه غير صحيح أو ليس عنده بيِّنة، فينشئ كلامه بما يحقق ذلك.

ثالثا-قاعدة العلاقة (المناسبة): وتستدعي من المتكلّم أن يجعل كلامه مناسبا وذا علاقة بالموضوع والمقام الذي يجري فيه.

رابعا-قاعدة الكيف (الطريقة): وتستدعي من المتكلِّم:

-الإيجاز والإفصاح

-والاحتراز من الغموض والالتباس

-وترتيب الكلام وتنسيقه[3].

---

[1] ذكره لأول مرة في دروسه "محاضرات في التخاطب"، وشرحه أكثر في مقالته الشهيرة "المنطق والتخاطب".

[2] اللسان والميزان، د.طه عبد الرحمن، ص238.

[3] ينظر اللسان والميزان، طه عبد الرحمن، 238، واستراتيجيات الخطاب، د.عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص96. والتداولية اليوم، آن روبول وجاك موشلار، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ص57، ونظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، د.صلاح إسماعيل، ص87.

وهي قواعد مركبة، تنطلق من الفعل القولي، ثم تربطه بمعطيات السياق التي تسهم في بناء مقصده وتحقيق غرضه، وهي تمثّل ضوابط تضمن لأي تفاعل كلامي تحقيق الفعل الإنجازي.

ولكن رغم دقّة هذه القواعد وقيمتها إلا أنّها قواعد نموذجية عامة؛ لأنّها تصف كيفيات التخاطب من غير أن توضِّحَ وتأخذَ في الحسبان جميع معطيات التفاعل الكلامي وتداعيات الموقف الذي يجري فيه الكلام؛ فالمتلقّي مثلا أصناف، مما قد يدعونا في حالات ما إلى اختراق قاعدة الكم التي قد تجعلنا نتصرف في مقتضياتها بحسب هذه الأصناف، وبالخصوص -كما تقول "أوركيوني Orecchione"- ذوي سوء النية، فيلجئون إلى مناورات هدفها العرقلة والإلهاء. ثم إنّ هناك تبادلات تقِلُّ فيها درجة التعاون على غرار التفاعل في المناظرة والجدل، والذي يتجاوز التبادلات الهادئة، وحتى الاندماجية[1].

ويُدخلنا هذا الأمر إلى اعتراض من صنف آخر، ويتعلّق كما يرى طه عبد الرحمن بالجانب التهذيبي من المخاطبة[2]، والذي يقتضي ضوابط معينة في عملية التخاطب.

وهذا ما دفع الكثير من العلماء إلى التأمّل في قواعد "غرايس Grice" للتخاطب، فانطلقوا منها ثم نقدوها وقدّموا بديلا عنها بما يضبط بحسبهم العلاقات أكثر بين المتفاعلين[3]، وركّزوا أكثر على أهمية الجوانب الاجتماعية والنفسية والثقافية والأخلاقية في العملية التفاعلية ككل.

3-"مبدأ التأدّب" في الدرس التداولي:

انتبه التداوليون إلى مفهوم "مبدأ التأدّب" والتهذيب وأهميته في إنتاج الفعل الكلامي، وتحقيق إنجازيته المنوطة به، فبلوروا الفكرة الأساسية التي يقوم عليها ضمن قواعد خاصة، قد نبدأ في هذه المناسبة بـ"سيرل Searle" الذي بيّن كيف أنّ "التأدّب La politesse" يعدّ الأساس الأولي -إن لم يكن الوحيد- في استعمال القول غير المباشر[4]، وقد انطلق في ذلك من أمثلة متنوّعة منها:

---

[1] ينظر، المضمر، أوركيوني، ترجمة ريتا خاطر، ص350.

[2] ينظر اللسان والميزان، د.طه عبد الرحمن، ص239.

[3] وهنا نشير إلى أنّ "غرايس Grice" نفسه يقر بأن مبدأ التعاون يشكل نوعا من "المبدأ المثالي" الذي من شأنه أن يجعل عددا معينا من القواعد التحادثية المحددة أكثر شمولية، وبالتالي يقر أنه "يمكن إضافة المزيد منها" من منطلق أن ثمة مبادئ أخرى يمكن أن تؤمِّن إجراءات التفاعل مثل القواعد الغريسية. ينظر المضمر، أوريكيوني، ص346 و356.

[4] Voir John Searle, Sens et expression, P:9.2

-"هل يمكن أن تُقدّم لي الملح؟"
-"هل يمكن أن تعيرني القلم؟"

وهي استعمالات تشيع في مخاطباتنا بقوّة حيث نوظّف الأفعال الكلامية غير المباشرة حتى نضمن تحقيق القوّة الإنجازية المرادة، حتى إنّ المتلقّي قد يكون له المجال للرفض في الفعل الكلامي المباشر، ولكن انطلاقا من هذه الاستراتيجية قد يستجيب للفعل التأثيري المراد، وبالتالي يتحقّق الإنجاز المنوط به. وهنا يؤكّد "سيرل Searle" مرّة أخرى أنّ "التأدُّب La politesse" هو الدافع الأكثر قوة لاستعمال الطلبات غير المباشرة[1]؛ والسبب في ذلك أنّ إنجازية الأفعال الكلامية في أساسها تتأسس من الموقف الذي يجري فيه بين المتكلّم والمتلقّي، وبالتالي فنجاحُ أو عدمُ نجاح كلّ قوة إنجازية يبقى مرتبطا بنوعية الفعل القولي، ومدى توافره على السمات التأديبية التي من شأنها أن تحقّق الفعل التأثيري، وبالتالي الفعل الإنجازي المقصود.

وقد ذكر "سيرل Searle" أنّ هناك صيغاً معينةً تكاد تكون بطبيعتها طرقاً عرفيةً للتأدُّب في إنجاز الطلب غير المباشر، تختلف انطلاقا من البيئة اللغوية التي ينتمي إليها أطراف التخاطب، ففي الفرنسية يشيع استعمال صيغ "Pouvez-vous, pourriez-vous, je voudrais que..." وغيرها[2]. أما في لغتنا العربية فقد نستعمل عبارات "لو سمحت، من فضلك، إن كان بإمكانك، إن استطعت، بصدق، وغيرها من المؤشِّرات اللغوية[3] التي تفصح عن التأدّب.

وهذا ما يشيع في طلباتنا اليومية؛ إذ كثيرا ما نقول:

-"لو سمحت دعني أكمل حديثي"؛ حينما يقاطعنا المخَاطب.
-"من فضلك احترم الموعد" حينما نتودّد أكثر من أجل جعل المخاطب يأتي في الموعد المحدّد.
-"إن استطعت اِجلب لي عند عودتك هدية"؛ حينما نريد الحصول على هدية ما.

فالمؤشِّرات القولية "لو سمحت، من فضلك، إن استطعت" التي قد تصحب في سياقات ما بنغمة هادئة، تمثِّل مدى التأدبّ الذي يريده المتكلّم، وهو

---

[1] **Voir Ibid, P:92.**

[2] **Voir John Searle, Sens et expression, P:92.**

[3] **يسميها د.أحمد المتوكل "ظروف القوى الإنجازية" وقد ناقشها بحسب أصناف الأفعال الكلامية التي اقترحها "سيرل". ينظر آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، ص74-75.**

إشعار عن قصده؛ لأنّه لا يريد إحراجه ويحافظ على ماء وجهه، ثم إنّها تزيد في درجة إذعان المتلقّي للقوة الإنجازية.

وقد أوردت "مبدأ التأدّب" كذلك "روبين لايكوف Robin Lakoff" في مقالها "منطق التأدّب"، دعت فيه إلى الأخذ بعين الاعتبار قواعد التهذيب أثناء التخاطب. ويقتضي هذا المبدأ أن يلتزم كل من المتكلّم والمخاطب بتحقيق الغاية التي من أجلها دخلاَ في الكلام من ضوابط التهذِيب ما لا يقل عما يلتزمان به من ضوابط التبليغ[1]. ولنكتشف قيمة ذلك قد نمثّل بقولنا: "أغلق الباب"، و"أغلق الباب من فضلك" و"لو سمحت أغلق الباب".

وقد فرعت "لايكوف Lakoff" عن هذا المبدأ ثلاث قواعد وهي:

*قاعدة التعفّف: ومقتضاها "لا تفرض نفسك على المخاطب".

*قاعدة التشكّك: ومقتضاها "لتجعل مخاطبك يختار بنفسه".

*قاعدة التودّد: ومقتضاها "لتُظهر الودّ للمخاطب"[2].

وأدنى تأمّل لهذه القواعد يجعلنا نلاحظ أنّ جوهرها قائم على ضرورة مراعاة العلاقة التخاطبية ذات البعد الأخلاقي بين المتكلِّم والمخاطَب؛ وفق ما تقتضيه العلاقات الاجتماعية والمعطيات النفسية، فهي تدعو إلى التعفّف والتهذيب والتودّد في تشكيل الفعل الكلامي، كما تستدعي –أثناء الطلب مثلا- استعمال العبارات غير المباشرة؛ وكلّ ذلك بحسب الموقف الذي يجري فيه الكلام. قد نستأنس في ذلك بما أورده ابن قتيبة حيث قال: «قال المنصور لرجلٍ أحمَدَ منه أمراً: سَلْ حاجتَك فقال: يُبقيك الله يا أميرَ المؤمنين؛ قَالَ: سَلْ، فليس يمكنك ذلك في كلّ وقتٍ، ولِمَ يا أمير المؤمنين؟! فوالله لا أستقصر عُمرَك، ولا أرهبُ بُخلَك، ولا أغتنمُ مالَك، وإنّ سؤالك لزينٌ، وإنّ عطاءَكِ لشرفٌ، وما على أحدٍ بَذَلَ وجهَه إليك نقصٌ ولا شينٌ، فأمر حتّى مُلئَ فُوهُ دُراً»[3]. حيث تم الفعل الكلامي بطريقة غير مباشرة بَرَع من خلاله المتكلّم في احترام مقتضيات قواعد مبدأ التأدّب، فتحقق الفعل الإنجازي المقصود.

كما أورد "ليتش Leech" "مبدأ اللطف (التأدُّب الأقصى) في الفعل الكلامي" انطلق فيه من "مبدأ التعاون" لـ"غرايس Grice"، واعتبره غير كافٍ لتفسير العلاقة الموجودة بين القول والقوة الإنجازية، كما أنّ قواعده ليست كليةً، ولا شاملةً للغة، فأقرّ بأهميتها في التخاطب اللغوي من جهة، ثم

---

[1] ينظر اللسان والميزان، د.طه عبد الرحمن، ص240.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص240-241.

[3] عيون الأخبار، 128/3.

أضاف عليها بعض المعطيات الاجتماعية والنفسية الضرورية من جهة أخرى. وقد صاغ مبدأه انطلاقا من صورتين متضادتين؛ الأولى: "فلتخفض (والحال هو على ما هو عليه) إلى الحد الأدنى عن الأحكام غير المؤدّبة" (التأدب النسبي). والثانية: "فلترفع (والحال هو على ما به) إلى الحدّ الأعلى التعبير عن الأحكام المؤدّبة" (التأدب الأقصى)[1].

وقد بيّن "ليتش Leech" أنّ هذا المبدأ يقوم على ستّ قواعد ذات صبغة ثنائية تقابلية وهي:

1-قاعدة فن التأدّب؛ وصورتها:

*تقليل الخسارة للآخر ⟸ تكثير الربح للآخر.

2-قاعدة الجود والكرم: وصورتها:

*تقليل الربح للذات ⟸ تكثير الخسارة للذات.

3-قاعدة الاستحسان: وصورتها:

*تقليل التنقيص من الآخر ⟸ تكثير إطراء الآخر.

4-قاعدة التواضع: وصورتها:

*تقليل الإطراء عن الذات ⟸ التنقيص من الذات.

5-قاعدة الموافقة (التأكيد): وصورتها:

*تقليل الاتفاق بين الذات والآخر ⟸ تكثير الموافقة بين الذات والآخر

6-قاعدة التعاطف (التصديق): وصورتها:

*تقليل التنافر والعداوة بين الذات والآخر ⟸ تكثير التواد والتعاطف بين والأنا والآخر[2].

وهي كلّها قواعد تكرّس حسن التأدّب الذي من الضروري أن يتحلّى به المتكلم في حواره، وتعتني أكثر بالمتلقي؛ لأنّها الضمان الأكثر فعالية في نجاح الفعل الكلامي، وكل ذلك بحسب ما يمليه الموقف الذي يجري فيه التخاطب، وقد نمثّل لدور هذه القواعد في "الأمر" فقد نقول:

أ-"أعرني القلم".

ب-"أريد أن تعيرني القلم".

---

[1] مبادئ التداولية، جيوفري ليتش، ترجمة د.عبد القادر قنيني، الدار البيضاء أفريقيا الشرق، 2013، ص110.

[2] ينظر مبادئ التداولية، ليتش، ص174، واللسان والميزان، طه عبد الرحمن، ص246-247، واستراتيجيات الخطاب –مقاربة لغوية تداولية- د.عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص111-112.

جـ-"هل بإمكانك أن تعيرني القلم".
د-"لو سمحت أعرني القلم".

الجملة الأولى لا تأخذ بالتأدّب الأقصى حيث تم الطلب بطريقة مباشرة مما قد يولد إحجام المخاطب على تحقيق الفعل المطلوب، في حين نجد في الجملة الثانية شيئا من اللباقة؛ إذ تحقّق طلب القلم بالجملة الخبرية التي تترك للمخاطب الاختيار في إنجاز ما طُلب منه. أما الثالثة فهي أكثر لباقةً من السابقتين؛ لأنّها جاءت في شكل استفهام يترك للمجيب حرية الاختيار بين "نعم" و"لا". في حين كانت الجملة الرابعة أكثر لباقة وتأدّباً من الجمل السابقة؛ لأنّها تظهر عدم طمع المتكلّم في وقوع المطلوب، مما لا يؤدّي إلى التنازع في تحقيق إنجاز الفعل (فعل العطاء)، ولكن هذا ما يدفع أكثر المتلقي إلى تحقيق القوة الإنجازية المطلوبة.

ورغم دقّة هذه القواعد إلا أنّها لا تناقش طبيعة الموقف الذي يجري فيه الكلام وتأثيراته في فعل القول الذي يمكن أن يحقق في القوة الإنجازية المنوطة به؛ على أساس أنّ لكل موقف مقتضيات تعبيرية تتنوع بحسب طبيعة المتلقي (المتلقي ليسا نمطا واحدا بل هو متنوع)، والحال الذي يجري فيه إنتاج الكلام وغير ذلك.

4-قواعد "مبدأ التأدب" في الدراسات العربية:

اهتم دارسونا في التراث بمقتضيات "مبدأ التأدّب" في التخاطب، وبيّنوا أثره في إنتاج الكلامي وتحقيق غرضه المنوط به، ولكن أفكارهم وردت في إطار دراسة قضايا نقدية وبلاغية وأدبية مختلفة. وقد ظلّت هذه الدراسات تدعو إلى الدقّة في تأليف الكلام والوضوح والابتعاد عن أشكال اللبس والغموض من جهة، وركّزوا أيضا على ما تقتضيه القواعد الأخلاقية التي أُستجمعت في الدراسات التداولية ضمن "مبدأ التأدّب" من جهة أخرى. وسنحاول ههنا استجماع القواعد التي صاغوها وفق ما يقتضيه هذا المبدأ، وهي تقوم في جوهرها على مجموعة من القواعد وهي:

أ-الصدق في القول وتحرّي الحقّ: أي كن صادقا فيما تزعم وتقول، وصدق قول أحد الحكماء "لا تقول ما لا تعلم، ولا تَتَعاطى ما لا تَنَال، ولا يخالف لسانُك ما في قلبك، ولا قولُك فعلَك"[1]. ويقول العسكري: «وأما الضرورة إلى سَوْقِ خبر واقتصاص كلام، فتحتاج إلى أن تتوخّى فيه الصدق، وتتحرّى الحق؛

[1] **لُباب الآداب، الأمير أسامة بن منقذ (ت584هـ)، ص228.**

فإنّ الكلام حينئذ يملكك ويحوجك إلى اتِّباعه والانقياد له»[1]. ومن هنا تبرز أهمية قاعدة "الصدق" في التفاعل الكلامي، وتؤمِّن له في بيئتنا العربية التفاهم والتوادد، باعتبارها تستميل المتلقي وتدعوه أكثر للفهم والاقتناع. وهنا نشير إلى أنّ من هِمَّة العربي اتّصافه بهذا الخُلق، وصدَق الشاعر إذ قال[2]:

لاَ يَكْذِبُ المَرْءُ إلاَّ مِنْ مَهَانَتِهِ أو عَادَةِ السُّوءِ أو مِنْ قِلَّةِ الأَدَبِ

لَجِيفَةُ الكَلْبِ عِنْدِي خَيْرُ رَائِحَة مِنْ كِذْبَةِ المَرْءِ فِي جِدٍّ وَفِي لَعِبِ

ومنه تظهر أهمية قاعدة "الصدق" التي تسم الاستعمال الكلامي، وبالتالي خلق الفعالية المقصودة التي يبتغيها المتكلم.

ويذكر طه عبد الرحمن أنّه «متى تحقّق المتكلّم بالصدق في الخبر والصدق في العمل والصدق في مطابقة قوله لفعله انفتح باب التواصل الصادق بينه وبين المخاطب وتزايدت أسباب التقارب بينهما، واندفع كل منهما في طلب التقرّب من الآخر»[3]. لتبقى الأهمية ههنا ليست مرتبطة بفعل القول وسلامته؛ بل تتعلّق في أساسها بالإخلاص الذي يقوم عليه القول وقصده.

وقد نتساءل ههنا عن طبيعة "الصدق" في الفعل الكلامي؛ فهو نوعان صدق لغوي وصدق تداولي، قد نستأنس مع المدائني الذي قال: «دخل رجل على عيسى بن موسى وعنده ابن شُبرُمَة فقال له: أتعرفه؟ وكان رُمي عنده بريبةٍ قال: نعم، إنّ له بيتا وشرفا وقدما، فخلّى سبيله، فلما خرج قال له أصحابه: أَعَرَفته؟ قال: لا، ولكنّي أعلم أنّ له بيتا يأوي إليه، وشرفه أُذناه ومَنْكباه، وقدمه هي قدمه التي يمشي عليها»[4]. باحترام قاعدة الصدق اللغوي، واختراق قاعدة الصدق التداولي لغرض إنجازي خاص؛ وهو التضليل مع المتلقّي، ودفع الريبة عن المسؤول عنه، وبقصدين مختلفين بين المتلقي الأول، والمتلقي الثاني، وههنا يتبيّن أنّ "مبدأ التأدب" تتنوّع قواعده بحسب معطيات سياق الموقف الذي يُنتج فيه الخطاب، وهذا ما يدفعنا إلى الحديث عن القاعدة الموالية.

ب-القصدية الأقصى في التأدّب:

---

[1] الصناعتين، العسكري، ص153.

[2] ينظر الظرف والظرفاء، أبو الطيب بن يحيى الوَشَّاء، تحقيق د.فهمي سعد، بيروت عالم الكتب، ط1/1986، ص99.

[3] طه عبد الرحمن، المصدر السابق، ص252.

[4] عيون الأخبار، لابن قتيبة، 201/2، والعقد الفريد، ابن عبد ربّه، 298/2.

تستدعي هذه القاعدة التعبير بما يقتضيه القصد الذي يحقّق الأثر المبتغى بين المتكلم والمتلقي معا من دون مراوغة أو لبس، وتقوم على تكييف الفعل الكلامي بما يوافق القوة الإنجازية من جهة أولى، وبما يتوافق مع الموقف الذي يجري فيه الكلام من جهة ثانية، والغرض الإنجازي من جهة ثالثة.

قد نستأنس أكثر في توضيح ذلك مع قصة المغيرة بن شعبة[1] الذي قال: «لم يخدَعْني غَيْرَ غلامٍ من بني الحرث بن كعب، فإنّي ذكرت امرأةً منهم لأتزوّجها فقال: أيُّها الأمير لا خَيْرَ لك فيها، فقلت ولِمَ؟ قال: رأيت رجلاً يقبِّلُها، فأعرض عنها فتزوَّجها الفتى، فلُمْتُه، وقلت: "أَلَمْ تخبرني أنّك رأيت رجلا يقبلها؟! قال: نعم رأيت أباها يقبّلها»[2]، فطبيعة المقصد الذي ابتغاه الفتى جعلته يحترم قانون الصدق اللغوي، ويخترق الصدق التداولي(المغالطة اللغوية)، لذلك كيَّف معه من التلفّظات ما يعدِّد في المقاصد بينه وبين المغيرة الذي فاته المعنى المراد.

جـ-التلطّف والتعفف والإخلاص في القول:

وتقتضي استعمال الفعل القولي الذي من شأنه أن يُظهر الود والتعفف والإخلاص للمتلقي وبالخصوص مع "التوجيهيات Directifs"؛ وهي تقوم على محاولة المتكلّم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما[3]، قد نمثل بما أورده صاحب عيون الأخبار حيث "لزم بعض الحكماء بابَ بعض ملوك العجم دهرا فلم يصل إليه فتلطّف للحاجب في إيصال رقعةٍ ففعل، وكان فيها أربعة أسطرٍ:

السطر الأول "الأملُ والضرورةُ أقدماني عليك".

السطر الثاني "والعُدمُ لا يكون معه صبرٌ على المطالبة".

السطر الثالث "الانصراف بلا فائدة شماتةٌ للأعداء".

السطر الرابع "فإمّا نعم مثمرةٌ، وإما لا مريحةٌ". فلما قرأها وقّع في كلّ سطرٍ زه؛ فأُعطيَ ستةَ عشرَ ألف مثقالٍ فضّةٍ»[4]، باستعمال الفعل الكلامي غير المباشر، وبما يحقق الغرض الإنجازي الذي يبتغيه المتكلم من المتلقي.

---

[1] وهو كما يقال داهية من دهاة العرب الأربعة وهم: المغيرة بن شعبة، ومعاوية، وعمرو بن العاص، والسائب بن الأقرع، وكلهم ولدوا بالطائف. ينظر قصص العرب، إبراهيم شمس الدين، 463/2.

[2] عيون الأخبار، ابن قتيبة الدنوري، القاهرة دار الكتب المصرية، ط2/ 1996، 200/2، وقصص العرب، إبراهيم شمس الدين، ج2/ص267 وص272.

[3] Voir Searle, sens et expression, P:53.

[4] عيون الأخبار، ابن قتيبة، 126/3-127، "زه" بمعنى أحسنت.

-الجدية والابتعاد عن أشكال الهزل في القول:

يقتضي مبدأ التأدب الجِدّ والابتعاد عن أشكال الهزل في القول بما قد ينتج عنه سوء الأدب، قال الشاعر[1]:

للجدِّ ما خُلق الإنسانُ فَالْتَمِسَنْ بالجدِّ حظَّكَ لاَ بالهَزْلِ واللَّعِبِ
لاَ يَلْبَثُ الهَزْلُ أَنْ يُجْنِي لِصَاحِبِه ذَمّاً ويُذهبَ عَنْهُ بَهْجَةَ الأَدَبِ

فالجد في القول يضفي تقرُّبا صادقا وخالصا بين طرفي التخاطب وبالتالي تحقيق الفعالية في ذلك، كما يورث المتكلم الهيبة والصرامة في إنتاج الفعل الكلامي ونجاحه.

-قاعدة التواجه في القول:

وقد نستأنس ههنا مع الجاحظ الذي حدَّد ما يجب أن يتحلَّى به المتكلِّم حتى يحفظ وجهه، إذ يقول: «حدثنا غيلان بن جرير قال: "لاَ تُطْعِمْ طَعَامَكَ مَنْ لاَ يَشْتَهِيه"، يقول: لا تُقْبِلْ بحديثك على مَن لا يُقبِل عليه بوجهه. وقال عبد الله بن مسعود "حَدِّث الناسَ ما حدجوك بأبصارهم، وأَذِنُوا لك بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترةً فأمسك»[2]. وهي دعوة صريحة إلى التواجه في التخاطب بين المتكلم والمتلقي بما يضمن الاستماع والإنصات وبالتالي خلق النجاح للتواصلِ بصفة عامة.

قد نمثِّل لذلك بمحاورة "الوليد بن عبد الملك ورجلٍ مُعْتَرِضٍ عليه في خطبته حيث لم يراع "مبدأ التواجه"، فاستعمل الأفعال الكلامية التي تهدِّد الوجه الدافع (وجه المتلقي)؛ إذ يذكر ابن عبد ربه أنّه «جلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة حتى اصفرت الشمس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين إنّ الوقت لا ينتظرك، وإنّ الربَّ لا يعذِرُك، قال: صدقت، ومن قال مثل مقالتك فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك من ها هنا، مَنْ أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقَه؟»[3].

بتوظيف استراتيجية التأدّب السلبي؛ يدلّ على ذلك استعمال الفعل الكلامي غير المباشر "إنّ الوقت لا ينتظرك، وإنّ الربَّ لا يعذرُك"؛ والقصد

---

[1] بهجة المَجالس وأنسُ المُجالس وشحذ الذهن والهَاجس، ابن عبد البر النمري القرطبي (ت463)، تحقيق محمد مرسي الخولي، 572/2.

[2] البيان والتبيين، الجاحظ، 103/1-104.

[3] العقد الفريد، ابن عبد ربه، 51/1. والأمر نفسه نلاحظه في قصة الرشيد ومعترض عليه في خطبته؛ إذ «قام رجل إلى هارون الرشيد وهو يخطب بمكة، فقال: "كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُون" الصف (3)، فأمر به فضُرب مائة سوط، فكان ينُّ الليل كله ويقول: الموت! الموت. فأُخبر هارون أنه رجل صالح، فأرسل إليه فاستحلّه فأحلّه». المصدر نفسه، 51/1.

طلب إنهاء الخطبة؛ فقد تأخَّر الوقت، ولكنّ في ذلك تهديدا وانتقاصا من وجه الوليد بن عبد الملك؛ فهو الحاكم، ولا يجوز احتمال الإهانة في هذا الموقف لأنّه لا مبرِّر له، فعلاقة الحاكم بالمحكوم الطاعة، وهذا ما جعل أمير المؤمنين يطلب قطع عنقه.

خاتمة:

لعلّنا نكون قد لاحظنا من خلال هذه المطارحة المقارنة بين قواعد مبدأ التأدّب كما اقترحها التداوليون الغربيون، وما بسطه علماؤنا العرب في التراث العربي أنّ البيئة اللغوية العربية، قد جعلت قواعد التأدّب تكتسي سمات خاصة، تُغذِّيها المعطيات اللغوية والاجتماعية والعقدية المتنوّعة المشارب، كما أنّها متنوّعة ومتعددة بحسب الموقف الذي يجري فيه التخاطب، باعتبار أنّ تحقيق الأفعال الكلامية يقتضي التأثير في المتلقّي وفق نمطية تخاطبية معينة تتجاوز الطابع الرمزي الشكلي للغة، لترتهن بقواعد تأدّبية أخرى لها فعالية أكثر في تحقيق القوة الإنجازية المقصودة.

قائمة المصادر والمراجع:

***القرآن الكريم برواية الإمام ورش عن الإمام نافع.**

-أدب المجالسة وحمد اللسان، ابن عبد البرّ (ت463هـ) تحقيق ودراسة سمير حلبي، طنطا دار الصحابة للتراث، ط1989/1.

-استراتيجيات الخطاب، د.عبد الهادي بن ظافر الشهري، بيروت دار الكتاب الجديد المتحدة ط2004/1م.

- آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، د.أحمد المتوكل، الرباط منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1993.

-الأمثال والحكم، علي بن محمد الماوردي (ت450هـ)، تحقيق ودراسة د.فؤاد عبد المنعم أحمد، الرياض دار الوطن للنشر، ط1999/1.

-بهجة المَجالس وأنسُ المُجالس وشحذ الذهن والهَاجس، ابن عبد البر النمري القرطبي (ت463)، تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت دار المكتب العلمية، ط2 (د.ت).

-البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة مكتبة الخانجي، ط1989/7.

-التداولية اليوم، آن روبول وجاك موشلار، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، بيروت المنظمة العربية للترجمة، ط2003/1م.

-جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق أبو الفضل عبد المجيد قطامش، بيروت دار الجيل، ط2، (د.ت).

-رسائل البلغاء، جمعها محمد كرد علي، طبع دار الكتب العربية، مصطفى البابي الحلبي وأخويه، سنة، 1913.
-الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق د. علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط2(د.ت).
-الظرف والظرفاء، أبو الطيب بن يحيى الوَشَّاء، تحقيق د.فهمي سعد، بيروت عالم الكتب، ط1986/1.
-العقد الفريد، ابن عبد ربّه، تحقيق عبد المجيد الترحيني، بيروت دار الكتب العلمية، 1997.
-عيون الأخبار، ابن قتيبة الدنوري، القاهرة دار الكتب المصرية، ط2/ 1996.
-القاموس المحيط، الفيروزآبادي، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1301/3هـ.
-لُباب الآداب، الأمير أسامة بن منقذ (ت584هـ)، تحقيق د.أحمد شاكر، القاهرة منشورات مكتبة السنة، ط1987/1.
-اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د.طه عبد الرحمن، المغرب المركز الثقافي العربي، ط1998/1.
-مبادئ التداولية، جيوفري ليتش، ترجمة د.عبد القادر قنيني، الدار البيضاء أفريقيا الشرق، 2013.
-المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة وزارة التربية والتعليم، 1994م.
-نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، د.صلاح إسماعيل، القاهرة الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، 2005.
المراجع الأجنبية:
Searle, Sens et expression études de théorie des actes de - langage, Paris les éditions de minuit,1982.